أصول الظاهرة الاتصالية في القـرآن الكـريم

" دراسة في منهجية الحوار القرآني "

الأستاذ محمد بابكر العوض (*)

تمهيد :

تساهم التجربة التأريخية المتحصلة للفرع المعرفي المراد تأصيله مساهمة فاعلة في تيسير عمل العلماء والباحثين ، وبذات القدر يساهم الانضباط المنهجي والوضوح في المفاهيم والمصطلحات في هذا الفرع في تيسير العملية التأصيلية ، ومن ثم تبدو مهمة علماء المسلمين العاملين في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية ذات الجذور التاريخية العميقة ، مثل علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة أيسر بكثير من مهمة رصفائهم من باحثي الإعلام والاتصال ؛ فبالنظر إلى علم الاقتصاد مثلاً ؛ وتبعاً للخبرة التاريخية الطويلة والإنتاج العلمي الغزير الذي حققه العلماء المسلمون في هذا الحقل ، فضلاً عن وضوح معالم النشاط الاقتصادي في القرآن والسنة - نجد أن فهماً قد تأصل عن نظام الإسلام الاقتصادي باعتباره نظاماً اجتماعياً تكافلياً لا ربويا . كما يتبلور أيضا بشأن علم السياسة – وإن كان بدرجة أقل - مفهوم للنظام السياسي الإسلامي يصَوِّرة نظاماً شورياً يستند على مفاهيم الخلافة والولاء وتحكمه مبادئ الشورى والعدل . وإذا حاولنا تحليل الصعوبات التي تواجه عالم الاتصال المسلم فسنجد أنها راجعة إلى حداثة ظهور العلم الاتصالي من جهة ونشوئه في بيئة غير إسلامية من جهة أخرى؛ وهذا ما جعله يتأسس على مفاهيم ومصطلحات يعز وجودها بمنطوقاتها في الأصول الإسلامية . وزاد من حدة هذه الصعوبات أيضا ضعف الاهتمام بالبحث الاتصالي والإعلامي في البلاد الإسلامية ، ولقد ركز العلم الاتصالي - في المراحل الأولى من الثورة الاتصالية - اهتمامه على الجزء المتعلق ببحوث الوسائل وبحوث الجمهور ؛ مهتماً بجوانبها التطبيقية ؛ مما خلف ندرة في بحوث المضمون والبحوث المتعلقة بفلسفة الاتصال وترتيباً على هذا الوضع يكاد يتكون ما يشبه الإجماع - من قبل رواد هذا العلم على اختلاف أصولهم المعرفية - حول عدم توفر مجموعة من النظريات المترابطة ترابطاً دقيقاً حول الاتصال الجماهيري "؛ **فلا يكاد يوجد - حتى الوقت الحاضر- أمر نظري ثابت نسبياً يمكن أن نطلق عليه نظرية الاتصال الجماهيري أو نظرية الإعلام ، ولكن هناك الكثير من التوقعات حول الطريقة التي يحدث بها الاتصال الجماهيري**" [1] ومن المؤكد أن ذلك يضاعف من صعوبات تقف بإزاء الاتصالي المسلم إلا أنه يعتبر حافزاً لولوج مضمار المنافسة القائمة لتأسيس هذا العلم وتقويم مسارات البحث فيه بما يخدم الأمة الإسلامية خاصة والإنسانية عامة ؛ ولكل ما سبق تبقى دراسة الأصول الفلسفية للنشاط الاتصالي لكل ما سبق تبقى على جانب عظيم من الأهمية في سبيل بناء نظام اتصالي فاعل .

(*) محاضر بمعهد إسلام المعرفة – جامعة الجزيرة.

(1) ملفن دي فلور و س بال وكاخ : ترجمة محمد ناجي الجوهر : نظريات الإعلام ، " دار الأمل للنشر والتوزيع ، اربد – الأردن " ط الأولى 2001م .

ولا مندوحة للباحث في الظاهرة الاتصالية ومتعلقاتها في القرآن الكريم من أن يبدأ بتحديد مدخل لدراسته ، فإما أن ينظر إلى الاتصال كمفهوم مجرد أو أن ينظر إلى الاتصال باعتباره سلوكاً إنسانياً ؛ وفي الحالة الأولى يبدأ العمل بتحديد المفاهيم المحيطة بالظاهرة. وتحديد مواطن ورودها في القرآن الكريم ؛ ومن ثم استخراج الدلالات الكامنة فيها ؛ من أجل بيان الإطار العام للاتصال كظاهرة وسلوك في القرآن الكريم ، و من البديهي أن نعلم أنه - وبسبب حداثة العلم الاتصالي ومن ثم حداثة مفاهيمه الأساسية من شاكلة "إعلام واتصال وصحافة"- فإن اللجوء إلى هذا المدخل سيصبح عملاً ضعيف الجدوى في مثل دراستنا ، أما إذا اخترنا النظر إلى الاتصال باعتباره نشاطاً إنسانياً فمن اليسير جداً أن نقف على تمثلات العملية الاتصالية في المضمون القرآني ؛ فالإنسان -كما هو معلوم - هو موضوع الكتاب العزيز ؛ وبهذا المعنى تصبح كل صور العملية الاتصالية في القرآن الكريم مظاناً للبحث ومصادر للمادة الهادية في تكوين تصور نظري للرؤية الإسلامية في الظاهرة الاتصالية أو على الأقل استخراج محددات الرؤية الإسلامية للظاهرة الاتصالية .ويتطلب النظر للحوار سبراً أعمق في أصول التفكير الإسلامي بحسبانه المظهر الاتصالي المعبر عنه بكثافة في القرآن الكريم بغية استخراج بعض الموجهات الأساسية للفكر الاتصالي الإسلامي ، كما أن في تأسيس الحوار وتأصيله تأسيس للاتصال بحسبانه الصورة الأولية له . وفي دراسة الحوار دراسة لصور التعبير الإعلامي وموجهاته ومستوياته.

أولا : معنى الحوار وحضوره في القرآن الكريم : -

بالرغم من أن للحوار معناه اللازم ؛ إلا أن واقع الاستخدام المعاصر للمفردة أضفى عليها معانٍ جديدة ، وجعلها تبدو محملة بعدد من المضامين يتجاوز معناها اللغوي والقاموسي ، مما يستدعي الوقوف على المعنى القرآني للحوار في مظانه .ويؤكد القرآن في تسعة مواضع منه أنه جاء بلسان عربي مبين ، وبالتالي فلا بد للراغب في دراسة موضوع الحوار من أن يعود بالمصطلح إلى أصول لغة القران التي عبر بها عن مضامينه المعرفية والتشريعية , وتساعدنا هذه المزاوجة بين القواميس اللغوية وكتابات المفسرين على المقابلة بين المعنى اللغوي للمفردة والاستخدام الاصطلاحي لها ، وفي هذا السبيل نورد ابتداء معنى كلمة حوار في معاجم وقوامبس اللغة ، ويلي ذلك الحديث عن المفردة بمعناها الذي وردت يه لدى علماء التفسير . ولا شك أن أصل اهتمام سلف هذه الأمة - من اللغويين والمفسرين بالموضوع – هو ورود الكلمة في كتاب الله عز وجل ، هذا إلى جانب الدواعي الحياتية التي يقررها الواقع، ومعلوم أن علماء اللغة قد أخذوا غالب المادة التي تألفت منها القواميس والمعاجم العربية من القرآن ، واعتمدوا على الاستخدام القرآني للاستدلال على معاني تلك المفردات.

وقد جاء في لسان العرب أن الحوار هو: الرجوع عن شيء إلى شيء ، وهو أيضا : مراجعة الكلام في المخاطبة [1] . وقد كانت المحاورة من الأساليب اللغوية المحببة لدى العرب وقد وردت في أشعارهم تصريحاً واستخداماً ؛ ومن ذلك قول عنترة :

---

[1] المرجع السابق ص 156.

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وقال آخر :

فواحسرتي لم أقض منها لبانتي (*) **ولم أتمتع بالحوار وبالقـرب**[2]

والحوار عند القرطبي هو: مراجعة الكلام[4][2] وعند ابن كثير هو: المجادلة والمحاورة والمراجعة والتجاوب [5] ومعنى قوله تعالى " **تجادلك**" أي : تخاصمك وتحاورك وتراجعك ، والله يسمع تحاوركما مراجعتكما الكلام . وتثير هذه التعريفات تساؤلاً هاماً هل المقصود بالحوار هو الحوار الذي يتم عبر المحادثة الكلامية ؟ إذ وردت كلمة الحوار بلفظها ثلاث مرات ، مرتين : في سورة الكهف ومرة واحدة في سورة المجادلة واصفة الثلاث حالات من الحوار اللفظي بين طرفين [1]. ويلاحظ في آيتي الكهف استخدام لفظ يحاوره في موقفين اتصاليين متقابلين بلفظ واحد ، أما في سورة المجادلة فيلاحظ استخدام لفظين مختلفين "**جادل وحاور**" لموقف اتصالي واحد , وربما يساعدنا الرجوع إلى أسباب النزول في مقاربة المعنى المراد[2] كما يلاحظ في هذه الاستخدامات الثلاثة اشتراكها في الآتي :

(أ) إن العملية المسماة حواراً هي عبارة عن محادثة كلامية يشترك فيها طرفان أو أكثر.

(ب)إن هناك تداولاً للرسائل بين المشتركين في الحوار .

(ج) يستلزم الحوار- في أبسط صوره - متكلماً ومخاطباً ولا بد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله [3] .

ومن خلال استعراض التعريفات السابقة والنظر في سبب نزول الآية - ننبه إلى معان هامة وهي :

أ/ أن القران لم ينزل استجابة لوقائع ظرفية مخصوصة ببيئة التنزيل وحدها ، وبالتالي فهو لا يحتبس في إطار المدلولات التاريخية المحصورة فحسب ؛ بل إن مرونة القران الشاملة للمعنى والمبنى هي التي تمنحه الهيمنة و تجعله قابلاً

(*) اللبانة : الحاجة.

(2) القرطبي ج 247/4 .

(4) معجم ألفاظ القرآن 135\1 .

(5) ابن كثير 84/3 .

انظر : فتح القدير 3 / 84 .

(1) انظر سورة الكهف الآية 34والمجادلة الآية 1.

(2) يرجح المفسرون أن فواتح سورة المجادلة قد نزلت في خولة بنت ثعلبة ، وكانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسـم وكان به لمم ؛ فأرادها فأبت فقال لها أنت علي كظهر أمي ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية ؛ فقال : لها ما أظنك إلا قد حرمت علي ؛ فقالت : والله ما ذاك طلاق ، وأتت رسول الله (ص) وعائشـة رضـي الله عنها تغسل شق رأسـه فقالت يا رسـول الله إن زوجي أوس بن الصـامت تزوجني وأنا شـابة غنية ذات مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شـبابي وتفرق أهلي وكبر سـني ظاهر مني ، وقد ندم ، فهل من شـيء يجمعني وإياه تنعشـني به ؛ فقال رسـول الله (ص) : حرمت عليه ؛ فقالت : يا رسـول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا وإنه أبو ولدي وأحب الناس إلي ؛ فقال رسول الله (ص) : حرمت عليه ؛ فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت صحبتي ونفضت له بطني ؛ فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شـأنك بشـيء ، فجعلت تراجع رسـول الله (ص) وإذا قال لها رسـول الله (ص) : حرمت عليه هتفت وقالت : أشـكو إلى الله فاقتي وشـدة حالي وإن لي صـبية صـغار إن ضـممتهم إليه ضـاعوا وإن ضـممتهم إليَّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك الهم فأنزل على لسان نبيك فرجي ، وكان هذا أول ظهار في الإسلام ، فقامت عائشة تغسل شق رأسـه الآخر ؛ فقالت : انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله ؛ فقالت عائشـة ا: قصـري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسـول الله (ص) ، فلما قضـى الوحي قال لها : ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسـول الله (ص) " **قد سـمع الله قول التي تجادلك** " تقول أم المؤمنين عائشـة: وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعضه إذ أنزل الله " قد سمع الله " .

(3) الإسلام مسؤول أيضاً عن فشل الحوار أو نجاحه - بقلم : الشيخ عبد الأمير قبلان.
http://hiwar-net.usj.edu.lb/ahiwar/a_chronique4.htm#link

للتنزيل على مختلف البيئات والظروف والتعاطي مع الواقع الإنساني بتبايناته المختلفة وتطوراته المطردة ، وهو معنى كامن في هذه الحوارية المتضمنة فيه .

ب/ استخدم القرآن كثيراً من الألفاظ المتباينة في أصولها تعاطيا مع البيئة الحضارية وتقريبا للمعاني .

وبالتالي فإذا انحصر الحوار لدى المفسرين واللغويين في نطاق العملية التي يتم فيها مراجعة الكلام وتبادله بين طرفين أو أكثر ؛ استناداً على تلك الاستخدامات الثلاثة للمفردة في السياق القرآني - فإننا في هذه الدراسة نستخدم الحوار بمعناه الأشمل المستفاد من النظر في مجمل المادة الحوارية المبثوثة في سائر النص القرآني ؛ وبالتالي فالحوار هنا يعني : **أي عملية يتم فيها تبادل الرسائل بين طرفين أو أكثر يجمع بينهم إطار دلالي مشترك سواء كانت هذه الرسائل لفظية أو غير لفظية .**

حضور الحوار في القرآن الكريم :-

تتحدد أهمية الحوار بتحديد مقدار وجوده في مجمل النص القرآني ، وبالتالي فإن الظهور العابر للحوار كمفردة وكمضمون - دليل على اهتمام عابر بالحوار كقيمة ومفهوم ، وإذا ثبت أن الحوار يشغل مساحة واسعة من مجمل البناء القرآني - فسيدل ذلك بلا شك على عظم أهمية الحوار في حياة الإسلام والمسلمين ، ولكن كيف يمكننا التأكد من وجود الحوار كمفهوم حاضر في بنية النص القرآني ؟ هناك أكثر من مدخل للإجابة فمن خلال النظرة الخارجية الحسية يمكن تحقيق ذلك بتتبع ورود مفهوم الحوار من خلال اللفظ ومرادفاته وكذلك المعنى ،ولكن هنالك وسائل يمكن أن تعطي دلالة أعمق على حوارية القرآن الكريم ؛وهي:

* اللجوء إلى مادة **(قول)** كمؤشر على وجود المحتوى الحواري .

* الاستناد على مبدأ **التفاعلية** كمؤشر إضافي على حوارية القرآن الكريم .

أ- ورود لفظ الحوار تصريحاً :

ورد لفظ **الحوار** كما أسلفنا في القران ثلاث مرات ، مرتين :في سورة الكهف ومرة: في سورة المجادلة ؛ غير أن الإيرادات الثلاثة لكلمة حوار لا تعكس محدودية اهتمام القران بالموضوع في حدود التصريح المباشر بالمفردة ؛إذ أن المادة الحوارية تشكل مساحة واسعة من مجمل النص القرآني ، كما أن الورود المتعدد لمرادفات الحوار مثل **الجدال** و**الحجاج** و**التلاوم** - بعكس اهتماما أوسع بالمفهوم .

ب-ورود مرادفات كلمة الحوار: -

حوى القران عدداً كبيراً من الكلمات التي تعد في ظاهر اللغة مرادفة لكلمة حوار مثل جدال وخطاب وكلمات تحمل معنى مقاربا للحوار مثل المخاصمة والمحاجة وكلمات تتضمن معنى الحوار مثل المناجاة والمناداة وجاء لفظ **الخطاب** في قوله : (**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ**) [1] وجاءت المخاصمة في قوله : (**مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ**)

[1] سورة هود الآية 37

[2] أما **المحاجة** فقد وردت في قوله : **(وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ)** [1] ومن المفاهيم التي تتضمن معنى الحوار **المناجاة والمناداة** ، وتكون المناجاة "سراً" والمناداة "جهراً" وقد وردت **المناجاة** في قوله **: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)** [2] ووردت **المناداة في** قوله **: (بمَا لا يَسْمَعُ إلاّ دُعَاءً ونِدَاءً)** وقوله : **(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ)** [3]. أما مفردتا **الجدل** و**الحجاج** فمن الواضح أنهما الأكثر ارتباطاً بالحوار كما ارتبط كل منهما بمفهوم ملازم له ؛ حيث ارتبط مفهوم الجدل بمفهوم الإقناع ؛ بينما ارتبط مفهوم الحجاج بمفهوم البرهان ، وقد تحدث القران عن مفهوم الجدل بلفظي جدل وجادل .والجدل في اللغة والجِدالُ : المُفَاوَضةُ عَلَى سبِيلِ المُنَازَعةِ والمُغَالَبَةِ وأصلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الْحَبْلَ أي أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ ؛ فكأنَّ المُتَجَادِلَيْنِ يَفْتِل كلُّ وَاحِدٍ الآخَرَ عَنْ رَأْيِهِ ، وَقيلَ الأصلُ في الجِدالِ الصَّراع وإسقاطُ الإنسانِ صاحِبَهُ عَلَى الجَدالةِ ؛ وهي : الأرْضُ الصُّلْبَةُ [4]ويكون الجدل محمودا ؛ إن كان للوقوف على الحق ؛ وإلا فهو مذموم .وقد استخدم مفهوم الجدل -بشكل معمق - لدى الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، وهو عند المتكلمين منهج يقيني لا ظني ، ومن هنا وضع له المتكلمون قواعد عقلية بالغة الدقة لضبطه [5] كما حظي هذا المفهوم باهتمام بالغ من قبل المفكرين والفلاسفة المحدثين[6] واشتركت المؤلفات المعاصرة - مع الاستخدام الاصطلاحي للمفردة - في تأكيد أن الغاية المرجوة من الخطاب الجدلي هي الوصول لتغيير الاتجاهات ووجهات النظر وتحقيق الغلبة والإفحام للخصوم وحفز أحد المتحاجين صاحبه لتغيير وجهة نظره وإقناعه بتبني وجهة نظر جديدة ، وهو بهذا المعنى يخالف الحوار الذي يهدف في الأصل إلى بيان موقف كل من طرفيه من القضية موضوع الحوار .إذن فالإقناع هو الغاية التي تبتغيها العملية الجدلية ؛ قال المعقيلي في الواضح: **"الغرض من الجدل عند المنصف نقل المخالف من الباطل إلى الحق ومن الخطأ إلى الإصابة"** وقال أيضا **: " اعلم أن سؤال الجدل هو الذي يقصد به نقل الخصم عن مذهبه بطريق المحاجّة "** وقال الشوكاني في الإرشاد: **"المقصود من الجدل تضييق الأمر على الخصم"**وقال السلمي في القواعد الصغرى: **"لا يحوز الجدل والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرته ليعرف ويعمل به ، فمن جادل لذلك فقد أطاع وأصاب ، ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب"**. ويقدم القران معنى ايجابياً للجدل في مواضع مثل قوله تعالى :(**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا)** [1] فهي تجادل لأنها تريد إقناع النبي (ص) بوجهة نظرها ، ومثل قوله : **(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)** [2] ، ومثل قوله : **(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)** [3] ويقدم القران كذلك معنى سلبياً للجدل في مواضع أخرى مثل قوله : **(وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)** [4] . أما **الحجاج** فمشتق من لفظ الحجة ، وَالحُجَّةُ هي الدِّلاَلَةُ المُبَيِّنةُ للمَحَجَّةِ أي :المَقْصِدِ المسْتَقِيم الذي يَقْتَضي صِحَّةَ أَحَدِ النَّقِيضَيْن ؛ قال تعالى : **(قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)** [1] وقال :(**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاّ الّذِينَ ظَلَمُوا)** [2] فَجعلَ مَا يَحْتجُّ بهَ الذِينَ ظَلَمُوا مُسْتَثْنًى مِنَ الحُجَّةِ وإنْ لم يكُنْ حُجَّة ، ويجوزُ أنه سُمِّيَ ما يَحْتَجُّونَ به حُجَّةً كقوْله : **(وَالّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ)** [3] فَسَمَّى الدَّاحِضَةَ حُجَّةً وقوله تعالى : **(لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)** [4] أي : لا احْتِجاجَ لِظُهُورِ البيَان ، والمُحَاجَّةُ أَنْ يطْلُبَ كُلُّ وَاحِدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِهِ وَمَحَجَّتِهِ ؛ قال تعالى : **(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ)** [5] وقال أيضا : **(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا**

---

[2] سورة ص الآية 69
[1] سورة الأنعام الآية 80.
[2] سورة طه الآية 62.
[3] سورة الأعراف الآية 44.
[4] المفردات في غريب القرآن 1\89 .
[5] د. محمد صالح محمد السيد: الجدل وآداب المناظرة عند المتكلمين ابن حزم أنموذجا ورقة عمل مقدمة لمؤتمر تقاليد الاختلاف في الثقافة العربية جامعة الكويت في الفترة ما بين 30 مارس إلى 1 أبريل 2002م.
[6] تعريف الجدل كما جاء في الموسوعة الفلسفية علم القوانين الأكثر عمومية التي تحكم تطور الطبيعة والمجتمع والفكر، وقد كان المفهوم العلمي للجدل قد ظهر عبر تاريخ طويل من التطور وقد نسخ المفهوم العلمي للجدل المفهوم التقليدي له ، وهو في تعريف آخر علم وجهات النظر المحتملة ، ومن ناحية تحليلية هو علم الإثباتM.Rosenthal & P.Yudin Dictionary of philosophy Progress publisher Moscow
[1] المجادلة الآية 1
[2] سورة النحل الآية 111
[3] سورة هود الآية 74
[4] سورة النساء الآية 107
[1] سورة الأنعام الآية 149.
[2] سورة البقرة الآية 150.
[3] سورة الشورى الآية 16.
[4] سورة الشورى الآية 15 .
[5] سورة الآية الأنعام 80 .

جَاءكَ) [6] وقال : (**لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ**) [7] وقال : (**هَا أَنْتُمْ هؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ به عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**) [8] وقال : (**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ في النَّارِ**) [9] .

وقد تتبع بعض العلماء المحدثين أساليب الجدل والحجاج في القرآن بالبحث والدراسة وذلك من مداخل منطقية فلسفية أو اتصالية وظيفية ، وليس هذا مجال الحديث عنها [10] هذا وقد كان للمحتوى الحواري في القرآن الكريم أشكال متعددة منها ما ذكر كالجدل والحجاج وغيرها ومنها ما يأتي نحو مادة القول والمقاسمة وغيرها من الصيغ التفاعلية، وتفصيل ذلك كالآتي:

1- مؤشر مادة قول :

تعتبر محاولة الدكتور المقرئ الإدريسي - لرصد المحتوى الحواري في القران الكريم مستندا إلى علم اللغة - محاولة رائدة في مجالها ، وتقوم هذه المحاولة على تتبع مادة **"القول"**بتصريفاتها واشتقاقاتها، وقد خلص الإدريسي إلى نتيجة مفادها : أن تكرار مادة القول مؤشر على حوارية القرآن ، وأنه لا وجود في القرآن للصوت الواحد المتعالي الذي يعتمد التلقين ويقصي الآخر، بل إن الآخر ورأي الآخر مستحضر إلى درجة كبيرة ، ذلك مع أن القرآن نص إلهي متعال مطلق لا ينكر عليه أن لا يكون حوارياً متعدد الأصوات ، وأن القرآن الكريم يدعو إلى الحوار ومن مستلزمات هذا الحوار الاعتراف بالطرف الآخر وبحقه في الوجود والتعبير عن رأيه وبحقه في الاختلاف مع الآخر ؛ يقول الإدريسي : **"والقرآن الكريم يؤسس لهذا ، ودليلي من اللغة هو فعل قال أو مادة القول باعتبارها مؤشراً لغوياً حاسماً وصارماً على حوارية أي نص."** ، ولاشك أن أهم مؤشر على وجود روح الحوار في القرآن هو تصرف مادة القول ؛ أي : فعل **"قال"** ومشتقاته ، وبقدر حضور هذه المادة وتوزعها وتنوعها ووجود تصريفاتها - يكون حظ هذا النص من الحوارية كبيرا ؛ يقول الإدريسي : **"وعكفت على المصحف مدة فانتهيت إلى ما يأتي : :مادة - ق و ل - تتكرر في القرآن 1722 مرة وهو رقم ينبغي الوقوف عليه ، وأكثر من ذلك الحضور الكمي والحضور الكيفي ؛ إذ تتصرف على تسعة وأربعين تصريفاً واشتقاقاً ، و لو كانت "قال" متصرفة تصريفاً واحداً -قال أو يقول منسوبة إلى الذات الإلهية، قلت أو قلنا أو ما شاء من التصرفات الدالة على جهة المتكلم المتعالي- لما كان هناك أي معنى لاستعمال مادة القول كمؤشر على الحوار.؛ حيث تكون بذلك مؤشراً على التلقين وعلى التعالي وعلى الصوت الواحد وعلى الرأي الواحد والفكر الواحد ، ولكن نجدها متوزعة على تسعة وأربعين اشتقاقا ؛ تتوزع على كل أطراف المقام الحواري. من متكلم ومخاطب ومستمع ومحاور ومقاطع وغائب وحاضر ومذكر ومؤنث ومثنى وجمع ، ونجد قال 529 مرة، و يقولون 92 مرة ، و قل 332 مرة، و قولوا 13 مرة ، و قيل 49 مرة ، و القول 52 مرة ، و قولهم 12 مرة . وأنا أذكر الأرقام كمؤشر على الحوارية عالي الترداد داخل النص القرآني بشكل لافت للنظر** [1].

---

[6] سورة آل عمران الآية61 .
[7] سورة آل عمران الآية65 .
[8] سورة آل عمران الآية66 .
[9] سورة غافر الآية47 .
[10] أنظر : معتصم بابكرمصطفى استراتيجيات ، الإقناع في القرآن الكريم، كتاب الأمة العدد ( ) للدكتور و زكريا بشير إمام أساليب الحجاج في القرآن الكريم سلسلة رسائل * الحضاري .
[1] المقرئ الإدريسي : لغة الحوار في القرآن ، مجلة الرشاد العدد (10) ، السنة (5) نوفمبر 2000 ص 14-15.

2- الصيغ التفاعلية في القرآن الكريم :

استفادة من المعطيات التي توفرها علوم الاتصال - يمكننا تأكيد حوارية القرآن عبر مدخل آخر ؛ وذلك برصد المادة التفاعلية في القران تأسيساً على المفهوم الشامل للحوار الذي يعتبر كل أنواع الاتصال التفاعلي القائم بين الموجودات عملية حوارية على نحو من الأنحاء ، ومادة "**فاعَلَ**" بفتح العين هي الصورة المادية لوجود علاقة اتصالية حوارية ؛ ومن ثم فإن المادة التفاعلية "مادة فاعَلَ وتصريفاتها "المبثوثة في القران تمثل هي الأخرى دليلاً إضافياً على حوارية القران الكريم ، فمن ذات المادة جاءت كلمة "**حاور**" ومثيلاتها نحو "جادل ، وخاطب، " وقاسم "وتشير التفاعلية إلى أكثر من نوع من أنواع الحوار ؛ فلحوار إما أن يكون حواراً قولياً أو حواراً فعلياً ، وتفصيل ذلك كالآتي :

أ- الحوار القولي : نجد الحوار القولي في أفعال مثل "حاور وجادل وناقش وحاج وناجى ولاوم وقاسم" ولا خلاف حول تحقق الحوارية في هذا القسم .

ب- أما الحوار الفعلي: وهذا النوع نجده في أفعال من نوع "دافع وجاهد وقاتل " وهنا موقع التساؤل عن التفاعلية في الفعل هل يمكن اعتبارها حواراً أيضاً ؟ إذ إنّ المعنى القاموسي والاصطلاحي قضى - كما تبين آنفاً - بأن كلمة حوار إنما تعني عملية كلامية لفظية ، ولكننا سنفترض هنا أن أي مادة تفاعل هي في المنتهى حوار ، ونأخذ مثالاً لذلك الفعل "**جاهد**" لما يحيط به من مضامين هي في الفهم الدارج مخالفة لمعنى الحوار ، وبتحليل موقع الفعل "جاهد" يستبين المعنى ، ومعلوم أن الأصل في الإسلام هو الحوار وعدم التعدي ؛ قال تعالى :(**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**)[1] ولا يجوز العدول عن الحوار للقتال ما لم تكن هناك ضرورة ؛ إذ إن الجهاد إنما شرع للحفاظ على قنوات الحوار مفتوحة ، وليس ذلك فحسب بل سمي الحوار نفسه في المعرفة الإسلامية جهاداً أيضاً في بعض الأحيان ؛ قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)[2] وقال المفسرون إن الجهاد المقصود هنا هو بذل غاية الجهد في دين الله ؛ فأمره أن يجاهد المنافقين بالغلظة وإقامة الحجة وأن يعرفهم أحوالهم في الآخرة وأنهم لا نور لهم يجاوزون به الصراط مع المؤمنين بينما أمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله ، ؛ ومعلوم أنه لم يرد قط أن النبي (ص)جاهد المنافقين بالسيف [*] ، ومن هنا يتضح أن المراد هنا هو الجهاد بإقامة الحجة الدامغة والقران على نحو ما هو مأمور به في قوله تعالى : **(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)**[3] أي : بالقران .والحق أن جهاد المدافعة بالحجة والمنطق قد يكون أكثر مشقة من الجهاد بالسيف ؛ إذ يتطلب زمناً أطول حتى يبلغ غاياته ؛ بل قد يشغل هذا النوع من الجهاد غالب عمر الإنسان ، ولا يجوز في التصور الإسلامي العدول عن الحوار إلى الصراع إلا مع توفر مبررات قوية وخوف وقوع

---

[1] سورة البقرة الآية : 190.
[2] سورة التحريم الآية 9..
[*] لو أوردت قصة ابن ابي سلول حينما قال : لئن رجعنا إلى لمدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأزل.
[3] سورة الفرقان الآ]ية 52. .

شر لا يمكن دفعه ، ولا يكتفى في المسألة هذه بالتقدير الذاتي والاحتمالي ، بل ويندب الإسلام الموقف المعاكس ويشجع عليه بدعوته في الجنوح للسلم مع إسقاط المخاوف توكلاً على الله ؛ قال تعالى: (**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) [1] وإذا تأكد هذا المعنى ، وتبين أن فعل "**جاهد**" نفسه على ما أسقطه عليه واقع الاستخدام القائم ، ورد في القران للدلالة على الحوار - فيمكننا القول أن مادة "**فاعل**" في المصحف تصلح مؤشراً يجعلنا نقف على قدر معتبر من المادة الحوارية القرآنية .ومعلوم أن التفاعلية والقدرة عليها هي الملكة الأساسية لإدارة الحوار ، ولا شك أن النفس غير القادرة على التفاعل مع محيطها حواراً وتعايشاً ومدافعةً هي نفس عاجزة ؛ قال تعالى: (**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) [2] وهناك دعوات صريحة لتنمية القدرات التفاعلية للمتعاملين مع القرآن والراغبين في الانتفاع به .ويبين القرآن أن الانعزالية والبعد عن حركة الجماعة وعدم التفاعل مع الآخر هي أهم أسباب ضمور هذه الملكة ؛ قال تعالى: (**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**) [3] ومن اللطائف أن حفصا يقرأ الفعل ينشّأ بالبناء على المجهول : أي أنه لم ينشأ بنفسه ؛ وإنما تمت تنشئته حسب إرادة خارجة عن ذاته ، وفي ذلك إشارة إلى أهمية جعل الأبناء ينشئون وفق إرادة حرة ؛ فالإرادة الحرة هي أول شرائط الحوار الناجح حسب النموذج القرآني . ولا شك أن الغياب الواضح لكثير من معاني الحوار في حياة المجتمعات الإسلامية المعاصرة لا يمكن أن يعزى إلى رفض مذهبي أو منهجي للحوار ومضامينه - إذا تبينا هذا الحضور الكثيف لقيم الحوار في الكتاب العزيز ، ومن ثم فإن الحجة تظل قائمة على أهمية إنفاذ إرادة الحوار في هذه المجتمعات ما دام الكتاب قائماً .

ثانياً: البنية التأسيسية للحوار القرآني:-

أ- أصل الحوار وأهيته :

هناك تساؤل قائم عن الأصل الحاكم للعلاقة بين الموجودات أهو الحوار أم الصراع؟ وبإزاء هذا التساؤل تتضافر الرؤى السائدة على ساحة الفكر والعلم قائلة بأن الأصل في الحياة هو الصراع القائم على المنافسة ، مع تأكيد أن هذا التنافس الصراعي هو سر نجاح الإنسان في تحقيق غالب منجزات الحضارية المادية القائمة ، ويأتي ذلك امتداداً لآراء بعض الحكماء في الفلسفات القديمة حول تبادلية الوجود ، [1](1) ، وعادة ما يتأكد معنى الصراع ويترسخ على حساب الحوار ، و الإسلام -

---

(1) سورة الأنفال الآية 61. .
(2) سورة النحل الآيات75 – 76 .
(3) سورة الزخرف 18 .
(1) M.Rosenthal & P.Yudin Dectionary of philosophy Progress publisher Moscow 1967

بواقعيته المعهودة - يقر بحقيقة وجود الصراع ، إلا أنه يؤكد أن هذا المعنى السالب يزامنه ويشاركه في الوجود جانب موجب ؛ هو الحوار ؛ مؤكداً أنه هو الأصل . وأصل الحوار موجود في سنة الخلق الإلهي المؤسسة طبيعتها على الثنائية أو الزوجية ، فلا تتولد الحياة نفسها إلا بالتفاعل بين الحق والباطل أو بين الخير والشر ، وما من دعوة إلا وتتعرض للحوار والمجادلة ، ثم للمدافعة ، ثم من بعد ذلك تأتي الحركة أو السكون .. وقد قرره الله كأساس للعلاقة بينه وبين المخلوقات؛ قال تعالى: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** [1] ؛ وقال أيضا : **(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)** [2] وقال أيضاً : **(وإذ قال ربك للملائكةِ إني جاعلٌ في الارضِ خليفة)** ولهذا فمن باب أولى أن تقوم علاقة المخلوقات فيما بينها على هذا الأساس.ومن هنا يجد التساؤل الفلسفي - عن الأصل الحاكم للعلاقة بين الموجودات - إجابة واضحة وحاسمة في النموذج القرآني الذي يبدو فيه الكون والوجود كمنظومة ثنائية الإيقاع، يشترك فيها مفهوما الحوار والصراع الوجود من خلال قضية الابتلاء العام للبشرية ، وتشف هذه الثنائية عن واقعية التصور الإسلامي ؛ وهي واقعية تتجاوز الواقع ولا ترتهن إليه ، ولهذا فلا عجب إن خالف الإسلام بواقعيته ما تواضع عليه علماء الإنسان والتاريخ والحضارة والطبيعة حين وضعوا تصوراً للعالم يتمركز في الصراع كحاكم في العلاقة بين الموجودات ، وترتكز الرؤية الإسلامية القائلة بأن الأصل هو الحوار على مقاصد الخلق كما بينها الوحي الإلهي ؛ فالمقصد الكلي للخلق هو الإعمار ومعرفة الله ؛ قال تعالى: (**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**) [3]ولا يتحقق هذا المقصود إلا بكون الحوار هو الوسيلة المعتمدة لمداولة الآراء وتبادل وجهات النظر .

وبتفصيل أكثر فإن الحوار كما قررته مقاصد الشارع وعززته دواعي الواقع هو سبيل الرشد في ضبط العلاقة بين الموجودات التي خضعت لله طائعة على اختلاف طبائعها ؛ ولهذا فهو السبيل الأمثل لتعامل الكائن الإنساني مع محيطه .ويتم هذا التعامل بين الإنسان والكون من خلال القدرة التي زود بها الإنسان على تسخير هذا الكون ؛ قال تعالى: **(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)**. [1] ؛ وقال أيضا: **(وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)** [2] ولقابلية الكون لهذا التسخير فقد استجاب في عهد خلقه الأول للأمر الإلهي . ولا شك أن نظرة فاحصة لتاريخ الكون وحركته القائمة في ضوء الهدي القرآني تظهر لنا أن الخروج غير المبرر عن الإرادة العليا المسيرة لنظامه وخرق القوانين الحاكمة لحركته هي في حكم المحال ، ولهذا لا يتصور أن تشن الطبيعة بكائناتها حرباً على الإنسان هذا المخلوق الضعيف المحمي بمنظومة من السنن العلوية والقوانين الإلهية. غير أن الجنوح والتعدي ومجاوزة القسط في التعامل مع الكائنات الأخرى تأتي دائماً من قبل الإنسان. ،

---

[1] سورة فصلت الآية 11.
[2] سورة الرعد الآية 15.
[3] سورة هود الآية 61.
[1] سورة الجاثية الآية 13
[2] سورة الأعراف الآية 54

فهو الخارج بطبعه عن مراد الله بجهله وميله. ولهذا لا يمكن أن تكون الآراء القائلة بحاكمية الصراع إلا خطلاً لا مكان له في هذا النظام الواعي.. إذن فإن إرادة النشوز على الإيقاع المنتظم والمتناغم في حركة الحياة الدنيا وأشيائها هي خصيصة إنسانية ، يجترحها هذا الإنسان المزود بقدرات عقلية وعلمية هائلة سمحت أن يخالف بها أمر من استخلفه ؛ ومعلوم أن الخليفة يجب أن يكون امتدادا لسلطان مستخلفه ؛ ولكن رغم ذلك فإن النشوز على منظومة الخلق الكبرى يصدر منه ؛ ولهذا كان استفهام الملائكة استثنائياً حينما تعجبوا في جعل المفسد سافك الدماء خليفة في الأرض . ومع تمام الإرادة الحرة للإنسان إلا أن حركته محكومة بمنظومة تبين - هي الأخرى -التبعات والمسؤوليات المترتبة على استغلال هذه المزية وهذه المنظومة الحاكمة قد بينتها الشرائع السماوية .

الحوار في علاقة الكائنات بخالقها :-

يبين لنا القرآن - من خلال تصوره التفصيلي لمراحل خلق الإنسان ومقتضيات تكليفه برسالة الاستخلاف - طبيعة العلاقة القائمة بين هذا الإنسان والمخلوقات المحيطة به ؛ معرفاً لها باعتبارها أمم مثله ؛ إذ لها لغاتها الخاصة التي تعبر عن نظرتها لما يحيط بها خاصة على مستوى علاقتها بالله ؛ حيث يتوقف بقاؤها على وفائها بمقتضيات هذه العلاقة ، ونجد بياناً تفصيلياً لمنطق الكائنات الحية وما نسميها غير الحية في مملكة داود وسليمان التي يحكي القرآن خصائصها المعجزة في قصص حوارية فريدة ؛ قال تعالى: (**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**)[1] ؛ وقال: (**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**) [2] ؛ وقال: (**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**) [3] ولا يفهم الإنسان هذه اللغة ولا يعي ذلك التسبيح لعدم وجود الإطار الدلالي المشترك بينه وبين تلك الكائنات ، ولكن الاتصال الوثيق بالله عز وجل يسهل من تفعيل علاقة التفاهم والتعايش بين هذا الكائن المتصل بالله والموجودات الأخرى ؛ ففي ذات المملكة النبوية لداود وسليمان قال تعالى: (**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**) [4] وإذا اتضح أن العلاقة بين الإنسان والكون يراد لها - وفق المنطق القرآني - أن تكون علاقة تفاعل ، ويقتضي هذا التفاعل الموجب أن يكون الأصل هو إعمار الأرض بالعبادة ، وإذا كان الحوار أصلا في إرادة الوجود فينبغي أن يكون أصل العلاقة بين الموجودات أيضا.

الحوار كتعبير عن حقيقة الوجود الإنساني :-

يتعلق الحوار في القرآن بالوجود الإنساني على نحو ملفت ، فأول قصة حوارية يوردها القران هي قصة إيجاد الإنسان ؛ قال تعالى: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ**

---

[1] سورة ص الآية 18 .
[2] سورة الأنبياء الآية 79 .
[3] سورة النمل الآية 16 .
[4] سورة النمل الآية 40 .

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [1] والحوار في القران تعبير عن حقيقة الوجود الإنساني ؛ إذ تجعلنا الإشارات القرآنية نلامس الخطوط الواصلة بين الوجود الإنساني ومفهوم الحوار ؛ لنستشعر التلازم في النموذج القرآني بين خلق البشر ومبدأ الحوار الذي يظهر في المستوى الأعلى من مستوياته ؛ وهو حوار الله تعالى مع الموجودات. ومعلوم أن شرط الوجود على هذا المستوى أن يقول الله للشيء كن فيكون موجوداً ، والحاصل أن الله يخلق الكائنات وفق إرادته على النحو الذي يشاء ، ولكنه يخبرنا أنه عندما خلق آدم خلقه بيديه ، ثم قال له كن فيكون ، فربط سر الوجود الحقيقي والكينونة بالكلمة. ويمايز القرآن في هذا المستوى بين الخلق والتكوين؛ أي اكتساب الخلق لصفة الوجود الحقيقي ؛ فالكائنات هنا لا تكتسب وجودها الحقيقي إلا بعد تجاوبها مع مراد الله ؛ فإذا لم تتجاوب فكأنها لم تكن ، ولا ينبغي لها أن تكون ، وهذا التجاوب يقتضي المعرفة فلا حوار بلا معرفة ولا معرفة بلا حوار .

المبرر الواقعي للحوار :

إذا تقرر الحوار كحقيقة وجودية فهو - إلى جانب ذلك - ضرورة إنسانية ؛ إذ لا يتصور قيام اجتماع إنساني بدون حوار . ويؤكد القران أهمية الحوار من خلال تأكيده على حفظ الصلات ورعاية العلاقات القائمة بين البشر أفراداً كانوا أو جماعات ؛ قال تعالى: (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**) [1]. ولا يمكننا تصور وجود عالم بلا حوار ؛ لأنه بذلك سيكون عالماً صامتاً ساكناً وإن كنا ننتوق إلى عالم بلا صراع ، والحق أنه لم يعد الحديث عن الحوار بين حضارات العالم وأممه وديانات مجرد ترف فكري أو علاقات اجتماعية يمكن الاستغناء عنها ، ولكنه أصبح ضرورة عالمية ؛ فالصراعات الدينية تتنامى والدعوات إلى نسخ التجربة الإنسانية وإنكار وجود الآخر تغطي سماء العلاقة بين الحضارات والأمم .

وأصبح دعاة الحوار الديني يرددون - في الأعوام الأخيرة - مقولة العالم اللاهوتي الألماني هانس يونغ:**"لن يكون هناك سلام بين الأمم ، ما لم يكن هناك ســلام بين الأديان،، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان"** [2] وتتصاعد الصيحات من هنا وهناك مؤيدة ضرورة الحوار ، ولاشك أن الواقع الذي خلص إليه إنسان الحضارة الغالبة واقع بئيس على نحو ما عبر عنه جيري فالويل بقوله : **"نرى إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتفكيك الأسرة والإجهاض وجنوح الناشئة والفوضى الجنسية وتعاطي المخدرات وجرائم القتل ، إنني أشاهد حطام الإنسان والأرواح المهدرة بأكداس تفوق الإحصاءات ، إن أمريكا في حاجة سريعة إلى الإنقاذ الروحي والأخلاقي إذا كانت تريد أن لا تهلك في هذا القرن "** [3] وهذا الواقع يتطلب حواراً دينياً يعرض فيه أبناء الأمة الشاهدة والنموذج الرسالي معالجاتهم لمثل هذه

---

[1] سورة البقرة الآية 30
[1] سورة محمد الآية 22
[2] أرناؤوط جريدة (الزمان) ع2412 بتاريخ 2002/5/30 م
[3] Jery falwel : Listen America . New york Bantam Book,Ink 198

الوقائع . وقد يبدو لنا - نحن المسلمين - أن هذه الدعوة إلى الحوار الآن تأتي دفاعاً عن الذات في واقع محاصر بالهيمنة على وسائل الإعلام والاتصال والخطاب الشفوي والكتابي المحيط،وكل ذلك معزز بقوة العلم وآليات الحرب ، وقد نعلم أن الآخرين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأقلامهم وما دياتهم وخططهم ، ولكننا نبقى مع ذلك ملزمين بمقتضى الشرع وإملاء الوضع بإعمال الحوار .

الحوار ضرورة شرعية :

يؤسس القران لمنهج حياة شاملة ؛ لا لملة محصورة الهم في حدود التكاليف الفردية والشرائع والأحكام والعبادات ؛ ولا في نطاق الأمة المحدودة التي يجمعها الجنس والمكان أو اللغة واللسان. ولا شك أن نظرة شاملة للواقع الإسلامي تجعلنا نستبين القدر الهائل من التنوع الذي يحويه ذلك الكيان الكبير المعروف بالإسلام . ويؤسس القران لحياة متماسكة البناءات تكون نموذجاً شاهداً على الدوام للحياة الصالحة ، ومعيار الصلاحية هنا هو توفر أداة الإصلاح لا الصلاح الذاتي للفرد أو الجماعة ، ويعتبر الانكفاء والانعزال عن عملية الإصلاح خطراً يعرض المجتمع للفساد المفضي إلى السخط الإلهي ، ومعلوم أن توفر إرادة الإصلاح هي سبيل النجاة من الظلم ؛ لأن هذه الإرادة تقطع الطريق على الطغيان ؛ قال تعالى: **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)** [1] وهذا الصلاح المتعدي هو مناط خيرية هذه الأمة ؛ قال تعالى : **(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)** [2]ولا شك أن الحوار والمجادلة المنطقية هي أفضل السبل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما أن المشاركة هي سمة مميزة لهذا الدين في شعائره وشرائعه؛ فالعبادة في كل صورها حتى الفردية منها تؤدى إلى خطاب جماعي ، ففي سورة الفاتحة - أول القرآن وشرط قبول الصلاة - يردد المسلم **"نعبد ، نستعين"** بلسان الجماعة، وقد اشترط - لتسيير أمر الجماعة - الشورى فقال تعالى : **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)** [1]

وقال في شأن المؤمنين : **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)** [2] فهي المبدأ الذي عليه يتأسس نظام الدولة والمجتمع ، ولا قوام لهذه الشورى دون حوار سياسي بين الرعاة والرعية .

مهددات الحوار :

بعد أن يقرر القرآن الحوار كضرورة عقلية وشرعية يعرض الإرادة المناوئة للحوار . محملة بأسباب تبرر بها رفضها للحوار وإعراضها عنه ، وهي - في الغالب الأعم - أسباب تقليدية مبعثها النرجسية والإعجاب بالكسب الذاتي أو عدم

---

[1] سورة هود الآية 117.
[2] سورة آل عمران الآية 110.
[1] سورة آل عمران الآية 159.
[2] سورة الشورى الآية 38 .

الاعتراف بشرعية الطرف الآخر وقد يكون مبعث الاعتراض الاستغناء المتوهم والمفضي بصاحبه إلى الطغيان أو اللاعقلانية.:

أ-الإعجاب بالكسب الذاتي : إن ادعاء الحق المطلق والإعجاب بالكسب الذاتي يقود إلى نوع من الوصاية ، ويقدم القرآن صوراً متعددة لمثل هذه الممارسات ، وعلى خلفية السرد القرآني المصور لنبرة الإعجاب بالكسب الشخصي والثقة بالذات المتجاوز لحدود القصد - يمكننا تبين الخط الواصل بين مقولات تاريخية تبدأ بقوله تعالي:" **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**" [3] و (**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**) [4] و(**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى** [5] ومقولات حديثة مثل موت الإله و نهاية التاريخ ونحوها ، و الخط الواصل بين المعنيين واحد وإن باعدت خطوط الزمان بينهما ، لكن كيف تعامل القران مع هذا النوع حتى على مستوى الصالحين ؟ إذا صحت الرواية الواردة في أسباب نزول الآيات من 60 وما تلاها من سورة الكهف : إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ؛ فأوحى الله إليه إنَّ لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .. القصة ".. يكون الحوار قد تعين وسيلة لمعالجة هذه الظاهرة ، من حيث أن ثقة موسى فيما لديه من علم أنسته أن ينسب العلم لله ، وكانت المعالجة سلسلة من الحوارات انتهت به إلى التخلص من هذا الإحساس ، بعدما تكشف له مدى نقص ونسبية العلم والمعرفة الإنسانية .

ب- عدم الاعتراف بشرعية الطرف المقابل : هي علة الرفض الدائم لرسالة الأنبياء من قبل منكريها ؛ قال تعالى : (**قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا**) [1] ؛ قال أيضا : (**قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) [2].

ج- الاستغناء المفضي إلى الطغيان : يبين القران أن إحساس الإنسان بالاستغناء المعرفي أو المادي - عبر الاكتساب متعدد المصادر للمعرفة ، والكسب المستمر لمعطيات الحياة المادية - قد يكون سبيلا للطغيان ؛ وهو تجاوز الحد والخروج عن القصد ، ونجد لفظة "**استغنى**" في القران في أربعة مواضع ، واحدة منها في شأن الله عز وجل ؛ قال تعالى : (**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**) [3] وترد الثلاث الباقية في شأن البشر متعلقة إما بالمال ؛ قال: (**وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى**) [1]، أو الاستغناء عن الهدى ؛ قال : (**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى**) [2]أو الاستغناء بالعلم جحوداً لفضل الله ؛ قال: (**عَلَّمَ الْإِنسَانَ**

---

[3] سورة النازعات الآية 24.
[4] سورة غافر الآية 29.
[5] سورة طه الآية 63.
[1] سورة البقرة الآية 247 .
[2] سورة الزخرف الآية 31 .
[3] سورة التغابن : الاية 6 .
[1] سورة الليل الآية 8
[2] سورة عبس ،الآيات 5-7]

مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) [3] إن هذا الاستعلاء الزائف المبني على توهم الاستغناء هو سبيل آخر من سبل الفهم المؤدي لسد منافذ الحوار والمهدد لوجوده ؛ وذلك لاقتضائه الإنكار التام لوجود الأخر ؛ إذ لا يكون الاستغناء إلا عن آخر .

د- اللاعقلانية : اللاعقلانية مهدد آخر للحوار ؛ لأنها تفقد الحوار فاعليته تماماً ، واللاعقلانية المقصودة هنا ليست الناتجة عن الجهل أو الخلل والضعف في القدرات العقلية ، ولكنها لا عقلانية منهجية ، وهذا النوع وإن بدا لنا - من خلال اللفظ - محدثاً إلا أنه مذهب قديم ؛ ويتم التعبير عنه سفسطائيا بالمقولة المشهورة **"الإنسان معيار الأشياء جميعاً "** و هذا النوع من التفكير يفقد الحديث قيمته ؛ لأنه يجعل المتحدث يبني على أرضية متحركة لا تكاد تستقر عليها حقيقة ؛ ولهذا لا يتصور معه الوصول إلى نتائج تفيد عملية الحوار أو تنميها ، وعندما تفقد عملية الحوار القدرة على الاستمرارية تفقد الشرط الأساس لفاعليتها ؛ قال تعالى : (**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)** [4] .

ب -التأسيس المنهجي للحوار القرآني :

إن خير ما ننطلق منه لعرض هذا الموضوع ونستنير به كمعيار هو قوله تعالى **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)** [1] فمن لديه الهدى والكتاب تجاوز بنور الإيمان وهدى الله العقبة ، ويبقى الجدل في حضور العلم ، ويتم استبعاد المجادلة بغير علم ؛ لأنها سبيل الضلال ؛ فالذي يجادل دون اعتبار لأبسط السنن العلمية متنكراً جاهلاً أو متجاهلاً لها - ليس هو هدفاً مناسباً للحوار ؛ بل ينبغي الإعراض عنه ؛

قال تعالى : **(فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ)** [2]ليبقى الحوار في حضور العلم المستنير المشرق [3] ويزخر القران بعدد هائل من الموجهات والإحالات الضرورية ؛ لترشيد عملية الحوار وتوظيفها ؛ لتحقيق أكبر قدر من الفاعلية والتأثير ، وتؤسس تلك التوجيهات والإحالات المباني الأساسية التي يرتكز عليها مفهوم الحوار في السياق القرآني ، كما يشتمل على موجهات متعلقة بالإجراءات العملية للحوار .

مرتكزات الحوار القرآني :-

لا يتصور قيام حوار حقيقي إلا بوجود قواعد ومرتكزات أساسية يؤدي غياب أي منها لغياب معنى الحوار وإن تجسد واقعاً ، وتعتبر هذه المرتكزات شرطا لتحقيق معنى الحوار ممارسة وواقعاً ؛ فعلى المستوى المفاهيمي يبني القرآن القواعد الأساسية للحوار على مفاهيم متلازمة ، ومعاني جوهرية حاكمة لفهم المسلم للواقع ومنظمة لتعامله معه,وأول هذه المباني هي الحرية ، ويلازمها مفهوم اللا إكراه ثم الإيمان بحتمية الاختلاف والإقرار بواقع التنوع. الذي يتأسس عليه مفهوم حتمية

---

[3] سورة العلق الآيات 5- 7
[4] سورة الحج الآية :8
[1] سورة الحج الآية:8
[2] سورة النجم الآيات :29-30
[3] رشدي فكار :لمحات منهجية الحوار ، الطبعة الأولى –مكتبة وهبة القاهرة 1982م .

وجود الآخر ، أما المفهوم الذي يبدو في ظاهره غير متجانس مع مفهوم الحوار ؛ فهو مفهوم قيام الحجة المستفاد من قوله تعالى: (**قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) [1] وسنقوم فيما يلي بتحليل تلك المرتكزات بشئ من التفصيل .

1- حرية الاختيار وقاعدة اللاإكراه:

يتأسس مفهوم الحوار في القرآن على بنية غير منقسمة وغير قابلة للانقسام هي الحرية ، الحرية التي لم تسلب عن الذات كما أنها لم تسلب عن الشيء[2] ؛ قال تعالى : (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**) [3] وقال أيضاً : (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**) [4] ولفظة "**إما**"هنا أداة تخيير. وتقرير الحرية هنا مكفول بقاعدة اللا إكراه التي تأخذ مكاناً بارزاً في المنظور القرآني ؛ فالقرآن ينفي تحقق الدين وقيامه مع وجود الإكراه في الدين ؛ حيث يقول : "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"[5]نافية ؛ أي : أن الحكم بدينية سلوك أو مظهر وإضفاء الشرعية الدينية على أي سلوك أو نشاط يقتضي تحقق الاختيار وانتفاء الجبر ؛ فلا يحاسب الإنسان على السلوك الذي يفعله مقهوراً ومجبراً ؛ قال تعالى : (**مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) [6] وتؤمن السنة على هذا المعنى بالحديث الجامع : "**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى**"[1] وللقاعدة مترتبات تشريعية بينتها السنة وأسهبت الدراسات الفقهية في تقريرها ، وتتجلى هذه المعاني في الأثر النبوي : "**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** "[2] .

ومن الغريب أن تكون المرأة التي نزلت فيها الآية قوله تعالي: (**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) [3] هي جدة خولة بنت ثعلبة التي نزلت فيها آيات المجادلة .

---

[1] سورة البقرة الآية 256 .
[2] أ. قيس محمود حامد في الحرية بحث غير منشور.
[3] سورة البلد الآية 10.
[4] سورة الإنسان الآية 3 .
[5] سورة البقرة الآية 256 .
[6] سورة النحل الآية 106.

[1] رواه أبو داود: سـليمان بن الأشـعث : سـنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط/ دار الفكر ، 263/2 ، حديث رقم 2201. كما رواه ابن حبان : محمد بن حبان :صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب أرناؤوط ، ط/ 2 مؤسسة الرسالة 1993م ، 123/2، حديث رقم 388 . كما رواه البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي : سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط/ دار الباز مكة المكرمة 1994م ، 41/1 ، حديث رقم 182.

[2] رواه الدارقطني : علي بن عمر : سنن الدارقطني : تحقيق عبد الله هاشم ، ط/ دار المعرفة 1966م ، 4/ 170، حديث رقم33. كما رواه البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ، 84/6 ، حديث رقم 11236. كما رواه ابن حبان: محمد بن حبان :صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب أرناؤوط ط/ 2 مؤسسة الرسالة 1993م ، 203/16، حديث رقم 7219 .

[3] سورة النور الآية 33 .

2- حتمية الاختلاف و بروز مفهوم الآخر..

قال تعالى :(**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**) [4] ؛ وقال أيضا : (**وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم**) [5] يقرر القرآن أن الاختلاف سنة من سنن الخلق ؛ فالتشابه البسيط بين الكائنات يصعّب عملية التمييز بينها ؛ كما يصعّب التعرف عليها ، ولذلك يصبح لهذا الاختلاف قيمة كبرى على مستوى المعرفة ؛ إذ لا يتصور وجود **"الآخر"** بين البشر إذا انتفى التباين والاختلاف بينهم ، وأن الـ**"أنا"** لا تأخذ تمام معانيها إلا عبر تناظرها مع **"آخر"**. ويقرر الإسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية ، ويؤكد القرآن أن التعارف هو علة التباين بين المخلوقات البشرية ، ويتعامل معها على هذا الأساس ويترتب على حقيقة الاختلاف حرية الاختيار التي تبرز على نحو معجز في النص القرآني الذي يقدمها كأساس بني عليه الكون ؛ فإذا كان هذا على مستوى الأشياء فهي على مستوى الأفراد أوكد .

قيام الحجة :-

المستفاد من قوله تعالى : (**قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) [1] أن الآية جاءت لتقرر تنافى تحقق صفة الدينية في فعل أو سلوك مع وجود عنصر الإكراه، ليقضي بعدم الحاجة إليه ابتداء ؛ بعلة أن الغي و الرشد أصبحا واضحين ، إذا كان الأمر كذلك فقد أصبح من حق الإنسان الاختيار بين سبيلي الرشد والغي بكامل الحرية ، وفي حالة التباس الرشد بالغي فرضا أو انتفاء القدرة على التمييز بينهما - جاز الإكراه ؛ بناءً على جواز وصاية الراشد على القاصر، وجواز قيادة المبصر للأعمى . ولكن القرآن يؤكد دائما الحرية بكل أنواعها ، لأن نقائض الحرية غير قابلة للتحقق على أرض الواقع ،وأن أحداً لا يستطيع بالقوة أن يبدل قناعات الناس أو يغير معتقداتهم ؛ بل إن أقصى ما يستطيع أن يكرههم عليه - هو أن ينافقوا من يكرههم حتى يتجنبوا أذاهـ ، بينما تبقى قناعاتهم في عقولهم وعقائدهم في قلوبهم ، ويزخر المصحف بالآيات الدالة على هذا المعنى ؛ قال تعالى :(**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**) [2] ؛ وقال أيضا: (**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**) [3] ؛ وقال : (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) [4] .

أركان الحوار في القرآن الكريم :

تتضافر الآثار في الفكر الإنساني والفقه الشرعي مؤكدة أهمية الاجتماع الإنساني ، وقد تعيُّن الحوار كواحد من لوازم هذا الاجتماع ؛ إذ تقتضي المعايشة في إطار الزمان والمكان قيام علاقات إنسانية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم

---

[4] سورة هود الآية 118.
[5] سورة المائدة الآية 48 .
[1] سورة البقرة الآية 256
[2] سورة البقرة الآية 99
[3] سورة الغاشية الآية 22
[4] سورة البقرة الآية 256

المختلفة .ومع قيام هذه العلاقة تكون أركان الحوار الأساسية قد اكتملت وهي أنا وآخر وعلاقة بين الأنا والآخر وإطار من الخبرة المشتركة .

الآخر في القرآن الكريم :

يؤسس القران على مفهوم الاختلاف بين البشر الذي هو كما ذكرنا سنة مبررة بأنها سبيل للتعارف بناءً على التمايز ؛ قال تعالى :(**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**) [1]ودعا للتنبه إلى أنه ينبغي أن لا يترتب على هذا الاختلاف في اللون أو الجنس أو المعتقد أي إحساس بالتمييز والتفضل على الآخرين ، ودعا دائما إلى القسط والاعتدال في العلاقة مع ذلك الآخر أياً كان انتماؤه ؛ قال تعالى : (**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ**) [2] , كما أمر المسلمين أن يفوا للمعاهدين من كفار قريش بعهودهم ؛ فقال : (**فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ**) [3]. ويحوي أما بالنسبة للآخر الكتابي فإن الإسلام إيماناً ضمنياً بالمسيحية واليهودية كما جاء مصدقاً لما سبقه من الرسالات ؛ بل قدم الإسلام آصرة القربى الكتابية بين الإسلام والمسيحية واليهودية على قربى الرحم والعشيرة بين المسلمين وكفار قريش ؛ فأجاز مخالطة الكتابيين بالزواج ومآكلتهم بتحليل ذبائحهم للمسلمين ، في حين أنه قد حرم على المسلم الزواج من ابنة عمه المشركة أو الأكل من ذبائح أُولي قرابته من الوثنيين ؛ لتتضح بذلك خصوصية النظرة الإسلامية للآخر (الكتابي) وتمييزها إياه عن غيره ممن رفضوا النمط الإسلامي في الحياة .ويوجه القرآن المؤمنين إلى عدم النظر لأهل الكتاب بشكل نمطي باعتبارهم كتلة واحدة ؛ إذ يقرر أن النهي عن موالاة الكتابيين محصور في فئة ذات ملامح خاصة منهم ، ونجد جماع ذلك في الآيات الكريمات من سورة الممتحنة قوله تعالى: (**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) [1]وبهذا المعنى ظل الآخر في المنظور الإسلامي متعدداً ، ولهذا تباينت أحكام التعامل معه والحكم عليه ، وقد تفاعل مجتمع المدينة مع هذه الآيات بشكل فوري ، حتى ألقى بظلاله على حياتهم على نحو عاتبهم عليه القرآن فيما بعد حيث احتالت المبرة إلى محبة؛ قال تعالى : (**هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**) [2] . وقد ظل الهدف الرئيس للحوار الذي امتد بين النبي (ص)وأهل الكتاب طوال العهد النبوي هو إبلاغ الرسالة وإقامة الحجة والبرهان عليهم وبيان صدق الرسالة المحمدية ، وبعد الهجرة إلى المدينة تم تقنين العلاقة بين مجتمع المسلمين وسكان المدينة من اليهود ؛ حيث اعترف النبي (ص)بالوجود اليهودي رسمياً عبر ميثاق أهل المدينة وبعض الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة مع قبائل

---

[1] سورة الحجرات الآية 14
[2] سورة المائدة الآية 8
[3] سورة التوبة الآية 4
[1] سورة الممتحنةالآية 8 - 9
[2] سورة آل عمران الآية 119

اليهود .ومع اكتمال البنى التنظيمية والدستورية لدولة المدينة تأصلت في هذه الفترة التشريعية قواعد التعامل مع الآخر عقدياً وسياسياً ؛ حيث تم وضع الضوابط التي تحكم علاقة المسلم بالآخر الكتابي وغير الكتابي ؛ فأبرم النبي(ص) صلحاً مع كفار مكة أسماه القرآن "فتحاً مبيناً" وانتهى إلى تعزيز الاعتراف العالمي بدولته .

حول الإطار الدلالي وأهميته :

تتضمن العلاقة التأسيسية للحوار وجود إطار من الخبرة المشتركة بين الطرفين أو الأطراف المشتركة في العملية الحوارية ؛ لتكتسب الرسائل المتبادلة فيما بينهم معناها ؛ وذلك إنما يوفر القدرة على فك رموز هذه الرسائل واستيعابها ؛ سواء كانت هذه الرموز لغوية أو اصطلاحية ، ويعبر القرآن في أكثر من موضع عن تقديره لهذه الحقيقة ، إلا أن التساؤل عن أهمية هذا الإطار لم يفقد مبررات طرحه بعد حتى في هذا العصر الذي تطورت فيه علوم ودراسات الاتصال وانتشرت ثقافته على نحو غير مسبوق ، ويعتقد بعض الفلاسفة المعاصرين بعدم ضرورة وجود الإطار المشترك في إنجاح عملية الحوار ، ويعد النمساوي كارل بوبر واحداً من هؤلاء؛ فهو يرى أن وجود هذا الإطار ليس ضروريا لقيام مناقشة مفيدة بين طرفي الحوار حين يتسآل عما إذا كانت المناقشة الخصيبة المثمرة بين الأطر المختلفة ممكنة فعلاً ؟ [1] و يبدو تساؤل بوبر مفيداً تماماً في مراجعة قصة كالتي تقدمها لنا سورة الكهف "بين موسى والعبد الصالح"والتي انبنت عقدتها على الاختلاف في إطار الخبرة المشتركة ؛ فلا يتبين لنا أن المحاورات المستمرة بين موسى والعبد الصالح قد انتهت على اتفاق تام ؛ بل كان ختام القصة الفراق بينهما ، ورغم هذه النتيجة إلا أننا لا نستطيع الحكم بعدم جدوى العملية الحوارية التي جرت بينهما والتي يبدو أنها كانت تهدف إلى تقرير أن للحقيقة أكثر من وجه تتكشف من خلاله بقدر الترقي في سلم المعرفة وليس في المستوى الأفقي الواحد .

تقنيات الحوار القرآني :-

ينحو القران في توجيهه لمجريات الحوار إلى التنسيق بين نوعين من الميكانيزمات : ميكانزمات متعلقة بالمضمون الحواري وأخرى متعلقة بالشكل الذي تتم به عملية الحوار ، وقد رأينا - للتفريق- أن نسمي القسم الأول تقنيات والثاني إجراءات .وسنلاحظ في هذا الجانب أن الحوار القرآني يعتمد على آلة متناسقة الحركة منتظمة الإيقاع يتناغم فيها الداخلي

---

[1] يقول بوبر دعنا نأخذ حالة متطرفة : يخبرنا هيرودوت (أبو التاريخ) بأقصوصة شائقة وإن كانت بشعة إلى حد ما ؛ هي عن ملك الفرس داريوس الأول الذي أراد أن يلقن الإغريق المقيمين في إمبراطوريته درساً ، وكان من عادة الإغريق أن يحرقوا موتاهم ، فاستدعى داريوس الإغريق الذين كانوا يعيشون في بلاده ، وسألهم عن الثمن الذي يرتضونه كي يلتهموا آباءهم حين يتوفون ؛ فأجابوه : بأنه لا شئ البتة على ظهر الأرض يمكن أن يغريهم بفعل ذلك . حينئذ استدعى داريوس الكالاتيين الذين يأكلون آبائهم بالفعل ، وفي حضور الإغريق وبمعونة من يترجم لهم - سأل الكالاتيين عن الثمن الذي قد يرتضونه لكي يحرقوا جثث آبائهم حين يتوفون ، فكان أن تعالت صرخاتهم وناشدوه ألا يذكر مثل هذه الشانعة . ويعلق بوبر دعنا نفترض أن هذه المجابهة التي أقامها الملك داريوس قد حدثت بالفعل كما يرويها هيرودوت ، فهل كانت عقيمة مجدبة ؟ أنا أنكر أنها كانت هكذا ؛ لنسلم جميعاً بأنه لا يلوح إحراز تفاهم متبادل ، وهذه الأقصوصة تبين لنا أن هوة لا يمكن اجتيازها قد تواجهنا في بعض الحالات النادرة، ولكن حتى في هذه الحالات يصعب التشكك في أن كلا الفريقين قد تركت فيهما الخبرة تأثيراً عميقاً وأنهما تعلما شيئاً ما جديداً . وهذا يبين أن ثمة إمكان للمجابهة الخصيبة حتى بدون مناقشة بين البشر المستغرقين تماما في أطر مختلفة ، ولكن لا ينبغي أن نتوقع أن مجابهة ما أو حتى مناقشة مستفيضة سوف تنتهي بالمساهمين إلى الوصول لاتفاق ،ولكن هل الاتفاق مرغوب دائما ؟.

والخارجي والشكل والمضمون ، وقد شدّ هذا التناغم انتباه عدد من الباحثين في العلم والباحثين قديما وحديثا ، وتمثل دراسات الإعجاز مجلى واضحاً لهذا المعنى فقد ظل التساؤل عن مظان الإعجاز في النص القرآني "هل هو في المعنى أم المبنى " تساؤلاً ظل يشغل أذهان الباحثين. ولقد أحدث التلاقح الماثل بين الفكر الغربي الذي فرض نفسه على البيئات الإسلامية الحديثة ،- انتباهاً إلى مكامن القوة في النص القرآني لم يكن الانتباه إليها متاحاً في ظل غلبة وانتشار ثقافة التسليم العاطفي على الوعي الإسلامي . ومن الطبيعي أن تنعكس على الطريقة التي يعالج بها العلماء المسلمون النص القرآني ، ولذلك فإن ثقافة الواقع وعلاقتها بمناهج علوم القرآن في عصر ما تعكس الآفاق المعرفية التي عاشها المسلمون في ذلك العصر، فكان مما لفت المحدثين من علماء المسلمين من تقنيات الحوار القرآني - مضمونه المنطقي ، وقدرة النص القرآني العالية على سوق الحجج وتنظيمها بحيث تكون سبيلاً ميسوراً إلى الوصول بالمتلقي إلى حالة من الرضا والإقتناع المفضي إلى التسليم بالحقيقة القرآنية . وقد استخدم بعض العلماء المناهج المحدثة في سبر النص القرآني للوصول إلى مواقع القوة المنطقية في بنائه ، خاصة من جانب ما ينطوي عليه النص القرآني من قدرة عالية على الإقناع ويمكن تصنيف هذا النوع من الدراسات إلى قسمين :قسم اهتم بدراسة أساليب الحجاج القرآني استناداً على منهج فلسفي منطقي ، وقسم لجأ إلى استخدام منهج دراسات الإقناع في علوم الاتصال في تتبع أساليب الإقناع في القران الكريم ، وكان ناتج عمل الفريقين إضافات مقدرة لمناهج التعامل العصري مع القرآن الكريم ، وقد ساعد في السير بهذا الاتجاه تطورات متعلقة بتطور المعرفة الإنسانية و التساؤلات المستجدة للإنسان المعاصر و ظروف الواقع المتجددة ، ومع كل ما سبق يبقى البحث في إطار فاعلية الرسالة القرآنية - سواء من حيث البناء التقني أو قوة المضمون - مضماراً مفتوحاً للتنافس البحثي ويعطي تطور الدراسات القرآنية بهذا الاتجاه دلالة على اهتمام الأمة بالقيام بواجبات الشهود و في الوقت ذاته فإن إهمالها يعتبر هجراناً للقرآن الكريم.

2- إجراءات الحوار: -

يقدم القرآن ما يمكن أن نسميه "بروتكولاً "لتنظيم مجريات الحوار وإدارته بشكل يحقق المقاصد المرجوة منه كما يحقق الرضا لطرفي الحوار من خلال تقديمه لمنظومة موجهات تفصيلية تتعلق بالجانب الإجرائي للحوار ؛ وذلك من خلال مراعاته للآتي: مناسبة المكان لطبيعة الحوار ،اتخاذ الهيئة والموقف المناسب ، اختيار البداية المناسبة للحوار، ضبط الصوت، اختيار الوسيلة المناسبة للحوار ،؛ وتفصيل ذلك كالآتي :

1- مناسبة المكان لطبيعة الحوار والمشاركين فيه :

مع أن القرآن لا يحدد - في كثير من الأحوال - الأماكن التي تمت فيها أغلب الحوارات الواردة فيه ، إلا أنه في بعض المواضع يقدم لنا حوارات لعب فيها الموقع دوراً هاماً أثر في الحوار وتأثر به ؛ وخير مثال لذلك دور المكان في الحوار بين موسى الكليم وربه بوادي طوى عند جبل الطور ؛ لقد اختار الله أحد مخلوقاته ؛ قال تعالى : (**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ**

مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [1] وقال أيضاً (**:إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**) [2] واختيار المكان يجب أن يتناسب مع الأشخاص المتحاورين وطبيعة الرسالة ، وهذا ما حدث في هذه القصة الحوارية التي شغلت حيزاً كبيراً من مجمل النص القرآني ؛ فلا يجوز استخدام المساجد مثلاً للحوارات التجارية كما بين النبي(ص) ؛ ولا اتخاذها أماكن لتعظيم المخلوقين ؛ قال تعالى : (**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**) [3] وكذلك الشأن بالنسبة للمقابر ، والحاصل أنه عندما تكون هناك فرصة للإعداد للحوار يمكن أن يلعب المكان دوراً هاماً في إنجاحه .

2 اتخاذ الهيئة والموقف المناسب :

يهتم القران اهتماما واضحاً بالرسائل غير اللفظية التي تتدخل بطريقة من الطرق للتأثير في عملية التعامل بين طرفي المحاورة أو يحمل رسالة الحوار مضامين غير المضامين المعلنة في موضوع الحوار وتلوينه ؛ ومن هذا الباب نهى عن تصعير الخد والتعالي ونهى عن الخضوع بالقول ؛ قال تعالى : (**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**) [1] كناية عن الإشاحة بالوجه عن من تحاوره ترفعاً وتكبراً .ومنها أيضاً ؛ قوله تعالى : (**ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**) [2]. ويهتم القرآن بالرسائل غير اللفظية التي يعكسها المظهر الخارجي للإنسان في الملبس والإشارة وطريقة الجلوس وطريقة الحديث ونبرة الصوت ، ولا تأتي هذه الموجهات في سياقات الضبط والتشريع فقط ، ولكنها توفر قاعدة معرفية ثرة وغنية بجوانب الاتصال الإنساني وسننه ، وقد بدأت هذه الجوانب تلفت الانتباه في العصور الأخيرة من خلال دراسات الاتصال الإنساني الحديثة [3].

3- اختيار البداية المناسبة للحوار:

من خلال مراجعة فواتح الحوارات الواردة في القرآن نلاحظ أن نقطة بداية الحوار تحددها اعتبارات مختلفة متعلقة بطبيعة الحوار وموضوعه وبيئته. والأطراف المتحاورة : وإذا كان الحوار في أول لقاء بدأ بالتحية؛ قال تعالى: (**وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**) [4] ولبداية الحوار في القرآن أنماط وأشكال متعددة منها :

أ- **التعريف بالذات :**

إن أكثر الصور رسوخاً في نفوس من نحاورهم - الصور التي نعكسها نحن عن أنفسنا ، وكثيراً ما تدعونا الطريقة التي يعرف بها الآخرون أنفسهم إلى تغيير ما نحمله تجاههم من تصورات أو تعزيزها أو إلغائها ؛ إنها أول رسالة يمكن أن

---

[1] سورة النازعات الآيات 15-16.
[2] سورة طه الآية 12.
[3] سورة الجن الآية 18.
[1] سورة لقمان الآية 18
[2] سورة الأسراء الآية
[3] راجع كتاب الأمة ( ) مقالات الدعوة والإعلام .
[4] سورة هود الآية 69

يوجهها المحاور لمحاوره من خلال هيئته ولغته وعباراته وقضاياه التي يطرحها ، ويتشكل من خلالها الانطباع الأول الذي أثبتت الممارسة أن له أثراً هاماً في مجريات العملية الحوارية ومستقبل العلاقة المترتبة عليها ، كما أن التعريف بالذات يزيد من ثقة الطرف الآخر خاصة إذا لم يكن هناك سابق معرفة بينه وبين محاوره فلكل ذلك ينوه القرآن بعملية التعريف بالذات بحسبانها خطوة إجرائية هامة في عملية الحوار قال تعالى : (**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**) [1] وقال أيضا على لسان المرسلين لأصحاب القرية قوله تعالي: (**إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ**) [2]وأفضل تطبيق لهذا الإجراء نجده في حادثة التكليم ؛ قال تعالى : (**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**) [3] ولا شك أن هذا النوع من الحوار كان من أشرف الحوارات الإنسانية على الإطلاق ، فهي المرة الأولى والأخيرة على ما يبدو التي يكلم فيها الحق جل وعلا مخلوقاً بشرياً كفاحا دون حجاب على ظهر هذا الكوكب ، لقد بدأ الحوار بتعريف الحق عز وجل موسى بذاته الكريمة ؛ ليتحقق التمييز ، وتوضح آيات أخرى أن التعريف لم يقتصر على تعيين الذات بل تجاوز ذلك إلى سرد الصفات ؛ قال تعالى : (**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**) وكانت الخطوة الثانية بعد التعريف ومساعدة المتحاور المتردد على الانخراط في العملية الحوارية بسؤاله عن أكثر الأشياء إلفة بالنسبة إليه وأسهل الأسئلة إجابة ؛ فسأله عن عصا كان يحملها قال وما تلك بيمنك يا موسى وهي - على ما يبدو - خطوة لكسر حاجز الرهبة ؛ فالمقصود في هذه الحالة لا يكون إدراك معرفة أو تحصيل معلومة بقدر ما هو دفع لهذا الطرف إلى التفاعل والمداخلة .

ب-البدء بتقرير موضوع الحوار :

قد يبدأ الحوار القرآني بالتعريف بموضوع الحوار والغرض منه ؛ قال تعالى : (**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**) [1] وقال أيضا : (**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) [2] وقد طبق النبي (ص) هذه الإجراءات بشكل دقيق في حواراته مع قريش ووفد نصارى نجران وخطاب الأمم الأخرى عبر الرسائل والرسل . وقد يتدخل الموقف الإتصالي نفسه في تحديد البادئة المناسبة للحوار فلما ورد موسى ماء مدين ووجد امرأتين اعتزلنا الجمع بماشيتهما بادر وسالهما عن سبب اعتزالهما بعيداً عن الماء قائلاً "ما خطبكما" .

4- ضبط الصوت :

يقدم القرآن تعريف بالصوت في درجاته المختلفة ويعطي لكل درجة الحكم القيمي الذي يناسبها فالهمس هو الصوت الخاشع والصياح صوت منكر .

---

[1] سورة الكهف الآية 110.
[2] سورة يس الآية 14.
[3] سورة طه الآية 14.
[1] سورة الأعراف الآية 68
[2] سورة الأعراف الآية 62

قد دعا القرآن إلى ضبط الصوت لعدة اعتبارات: ليتناسب مع مكان الحوار ومقام المتحاورين فالجهر بالقول دون ضرورة فيه استهانة بمقام الطرف الآخر لذلك فقد فالجهر بالقول دون ضرورة فيه استهانة بمقام وأوضح القرآن أن حوار الناس مع الحق جل وعلا يوم القيامة سيكون حوارا هامسا بفعل الخشوع المبني على الرهبة ؛ قال تعالى : (**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**) [3] كما دعا القرآن المؤمنين إلى خفض أصواتهم في حضرة النبي (ص)؛ قال تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**) [1]لماذا؟. وامتدح الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله (ص)؛ قال تعالي: (**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**) [2] وذم الذين يرفعون أصواتهم فوق صوته واصفاً إياهم بالجهل وقلة العقل ؛ قال تعالي: (**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**) [3] لذلك فقد أكد على حفظ نوع من التوازن بين مضمون الرسالة اللفظية ومستوى الصوت الناقل لها ، وإذا كانت الفصاحة والإبانه ضرورة لإبلاغ رسالة مؤثرة وخاليه من التشويش إلا أن الصوت العالي لا يعكس بالضرورة منطقاً قوياً ؛ ومعلوم أن النبي(ص) لم يكن أقوى معاصريه صوتاً فقد استعان بالعباس لإبلاغ رسالته في حنين وكان جهوري الصوت ، وكذلك في خطبة الوداع كان له مبلغون ينقلون رسالته ، ومن هنا دعا القرآن على لسان لقمان إلى غض الصوت باعتباره فضيلة ، ومعلوم أن النبي هو الوسيلة الرئيسية لإبلاغ الرسالة الإلهية فقد تكون الحكمة من هذا النهي عن رفع الصوت عنده عدم تعريض المصدر الرئيس للضجيج المستمر الذي يؤثر على التركيز فتضعف القدرة على صياغة الرسائل بشكل جيد ، هذا إضافة إلى الجانب التربوي في المسالة ؛ فالاجتراء المستمر على رفع الصوت على نحو متجاوز لصوت النبي(ص) يقود إلى الاجتراء بتجاوز آرائه وتخطي أوامره ؛ فرفع الصوت في حد ذاته دلالة على رغبة صاحبه على فرض وجهة نظره على من يعلي صوته فوق أصواتهم .

5- اختيار الوسيلة المناسبة للحوار :

اشتهرت في منتصف الستينيات من القرن الماضي نظرية اتصالية للكندي مارشال ماكلوهان تقول إن الوسيلة هي الرسالة ، وقد استقى ماكلوهان هذه النظرية من دراسته للأدب الإنجليزي. وقد تأثر ماكلوهان كذلك بالنظرية الجمالية التي سادت في جامعة كامبردج حيث كان يدرس في ذلك الحين ، على الأستاذ بنشارد الذي يعتبر من أكبر أساتذة النقد الأدبي وترى هذه النظرية أن من الصعب الفصل - في العمل الأدبي- بين الصورة والمحتوى ؛ فالصورة في الفن الحقيقي تكون هي المحتوى أو المضمون مثلما يكون المحتوى هو الصورة ، وإذا أعدنا النظر في الوسائل المستخدمة في الحوار القرآني على ضوء مثل هذه الخلفية ماذا يمكن أن نجد ؟ تعطي قصة التبادل الحواري بين سليمان وبلقيس بياناً لهذه القضية فقد استخدم

---

[3] سورة طه الآية 109
[1] سورة الحجرات الآية 2
[2] سورة الحجرات الآية 3
[3] سورة الحجرات الآية 4

خلال هذا الحوار ثلاثة أنواع من أنواع الوسائل بدأت بالحوار الشفوي بين سليمان والهدهد ، ثم استخدم سليمان وسيلة مكتوبة هي الرسالة ، ثم ردت بلقيس على رسالته بالهدية وهي رسالة تصنف في الوقت الحاضر ضمن وسائل العلاقات العامة ؛ قال تعالى : (**قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**) [1] لقد اختار سليمان الوسيلة الأنجع لتقديم رسالته في ظل تناظر حضاري بين مملكة تعبد الطبيعة ومملكة تعبد خالق الطبيعة ، وقد كانت الفنون هي الوسيلة الأكثر تأثيراً والرسالة الأبلغ أثراً على ملكة أوتيت من كل شئ ، لقد استفاد سليمان من المعطيات المتاحة أمامه من خلال إفادة الهدهد قوله تعالي: (**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**) [1] ونلاحظ في هذه القصة أن الوسائل المستخدمة تغطي مختلف أضرب الاتصال المعلومة ،

***الوسائل المكتوبة**

*** الوسائل اللفظية**

***الوسائل المرئية**

ويؤدي تعدد الوسائل - عادة - إلى تقوية تأثير وفعالية الرسالة الحوارية ، وقد كان لهذا الغنى والتنوع في الوسائل بالغ التأثير على الهدف ، ويلاحظ هنا أن النبي سليمان عليه السلام قد اهتم بتجويد الرسالة وتوفر العناصر المضمونية والشكلية فيها ، ويتضح ذلك في الاهتمام بالجانب التحسيني في طريقة عرض الرسالة .

الحوار كعملية اتصالية :

يجسد الحوار مظهراً هاماً من مظاهر الوجود الإنساني ؛ فالقدرة على التواصل مع المحيط الحيوي هي المهارة الأساسية التي تميز الوجود الإنساني عن وجود سائر الكائنات الأخرى. ويمثل تاريخ الحضارة الإنسانية سلسلة من الحوارات المتواصلة الممتدة منذ الأزل بين الحضارات والأديان والفلسفات [2].وإن من أهم ما يميز عملية ممارسة الإنسان للحوار سواء كان حواراً بين الأمم والشعوب والملل أو حوار ذواتٍ مفردةٍ - هو أنه حوار أزلي امتد بعمر حياة الإنسان على ظهر هذا الكوكب . واللغة- كما هو معلوم - هي أداة التواصل الرئيسة بين الناس ، وإذا كانت اللغات تختلف فيما بينها من ناحية فإن القدرة اللسانية -وهي خاصية بشرية- تعتبر ظاهرة مشتركة وعالمية من ناحية أخرى [1] ولكن في الوقت الذي يسعى فيه العلم إلى توظيف الآلة من أجل تحقيق الاندماج اللغوي "Consolidation" يموت الشعور بأهمية التواصل الإنساني

---

[1] سورة النمل الآية 38

[1] سورة النمل الآية 22

[2] استخدم سقراط مصطلح (الحوار) والفهم المشترك (mutual understanding) لفهم المسائل الإنسانية ، فالحضارة الإيرانية القديمة مثلاً جاءت نتيجة لتلاقح ثقافات ميديا(Media) وأرمينيا والحضارة الأشورية وحضارة البابلية وحضارة أور (Ur) والحضارة المصرية القديمة .كما تشكلت حضارات السودان متأثرة بالحضارة المصرية القديمة والحضارة الاثيوبية والحضارة العربية الإسلامية . إذن فإن الحضارات لم تخرج من منشأ واحد وتربة متماثلة ؛ وإنما تولدت من التقاليد والحداثات المختلفة لكل منها أو بالتلاقح مع غيرها.

[1] كارين فيليب : في أقول اللغات : الثقافية العالمية : العدد 129 مارس 2005م .

ويتعزز مبدأ الانفصال "Segmentation" في أسلوب حياتنا [2].ليعيش العالم من التضخم في الإتصال وأدواته وغياب للتواصل ومعانية وتعود أهمية الحوار في الوقت الراهن إلى أنه يمثل الوجه المقابل للصراع ؛ ولذلك يتم عرضه كمخرج من المأزق وبديل لحالة التشاكس والصراع التي تتسم بها الحياة الإنسانية المعاصرة[3]2 . ومن المعلوم أنه بقدر ما تعمق مفهوم الحوار واتسعت دائرته في أمة من الأمم أو شعب من الشعوب - كان ذلك الشعب وتلك الأمة أكثر أهلية للتواصل بين أجزائها ومن ثم يكون التواصل مع الأمم والشعوب الأخرى . و تتجسد الصورة الأولية للاتصال الإنساني في أنا وآخر وعلاقة بين الأنا والآخر وإطار من الخبرة المشتركة ، ويعتبر هذا النوع من الاتصال أعلى مراحل الاتصال وأكثرها كفاءة في تحقيق الأهداف ، ويرجع ذلك إلى الصلة المباشرة بين المرسل والمستقبل ،

ويتم الاستدلال على مدى تحقق الاتصال من خلال ردود الفعل المباشرة "immediate feedback " [1] ، وهذا النموذج هو الذي تطمح أجهزة الاتصال بتقنياتها المختلفة إلى تحقيقه ؛ فالاتصال الحديث لم يعد موقفاً سلوكياً ينقل فيه المصدر الرسالة إلى المستقبل بهدف التأثير فيه ،وإنما أصبح موقفا تبادلياً يتبادل فيه شخصان أو أكثر معلومات أو أفكارا؛

إذ ألغت تقنية الإنترنت النموذج الخطي التقليدي للاتصال بما يتضمنه من قيود على العملية الاتصالية [2] ومن ثم فإن العلمية الحوارية تحقق المظهر الأولى للاتصال الإنساني ؛ فالحوار بدلالته العامة والاصطلاحية مستوعب لمعاني الاتصال بمستوياته المختلفة . ولهذا يصبح التأطير القرآني للحوار كعملية وكمفهوم تأطير ضمني للاتصال كسلوك ومفهوم.

ولابد لقيام العملية الحوارية من توفر عناصر لا يتم الحوار إذا فقد أي واحد منها ، وتختلف مسميات هذه العناصر باختلاف المداخل ، فإذا قرأنا نموذج العملية بلغة فلسفية فسنجد أنها تتكون من أنا و وآخر ومضمون حواري وإطار من الخبرة المشتركة ، وفي علوم اللغة تسمى مكونات العملية متكلِّم و مخاطَب وخطاب ، وفي علم الاتصال يتم تعريف ذات العملية من خلال عناصرها على النحو التالي : مرسل ومستقبل ووسيلة ورسالة وإطار دلالي أو فريم مرجعي، أو بتعبير آخر قائم بالاتصال : متلقي قناة اتصال رسالة واستجابة وتغذية مرتجعة.

---

[2] يتم العمل على تطوير نظام للترجمة الآلية auto mated translation يسمى نظام الترجمة الآلي التزامني من قبل عدد من شركات الكمبيوتر وسيوفر هذا النظام الآلي ترجمة فورية instantaneous وستكون هذه الترجمة متزامنة Synchromou بحيث لا يشعر المتحدث أو المستمع بأنه فواصل زمنية محسوسة .

[3] إن أشد الصراعات في الزمن الحاضر وربما أيضا في المستقبل _كما يذكر هاينريخ شنايدر (Heinrech Schneider _ تجري في مجابهات بين ثقافات حاصلة على هويتها وتماسكها من حيث انتمائها إلى التقاليد الدينية العالمية الكبرى ، وهي السمة الأكثر جلاء في الصراع القائم بين الحضارتين الغربية والإسلامية وهما حضارتان يحدد الدين هويتهما 2 [12 وهذا ما يعطي المعضلات وزناً إضافياً وحدة إضافية ..

[1] علي محمد شمو : أساسيات الاتصال ومهاراته ،منشورات جامعة السودان المفتوحة ط/1 الخرطوم 2005م .

[2] حسن محمد نصر : الانترنيت والإعلام الصحافة الإلكترونية ،مكتبة الفلاح ،ط/1 الكويت ،2003

نموذج تفسيري للحوار القرآني:

يؤكد علماء الاتصال أن فهمنا لعملية الاتصال الشخصي سيساعدنا على فهم أنماط الاتصال الأخرى الأكثر تعقيداً ، وتعتبر النماذج التفسيرية واحدة من التقنيات الهامة التي ابتدعها علماء الاتصال لشرح السلوك الاتصالي لدى الإنسان ، ويمكننا استناداً على ما سبق أن نعيد تسمية عناصر العملية الحوارية بشكل رمزي تجريداً لها وتقريباً للمعنى حيث:

مع تفعيل الحوارية يتم تبادل الرسائل بين (أ) و (ب) في هيئة رمزية - حيث **(أ)**: هو المصدر أو المرسل أو القائم بالاتصال و**(ب)** : هو المستقبل أو الهدف ، وتعمل **(د) :**

(الإطار الدلالي المشترك)

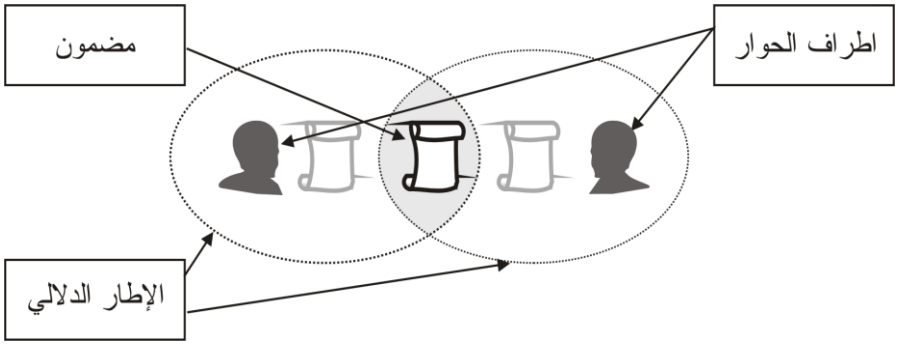

(يصور النموذج عناصر عملية حوارية في حالة سكون.)

أو الخبرة المشتركة) على إكساب مفردات ج(المضمون- الرسالة) لدى كل من (أ) و(ب)معناها وتتم استجابة من قبل كل من (أ) و (ب) للرسائل التي تصل إلى كل منها، وتكون هذه الاستجابة إما استجابة موجبة أو سالبة ، ويقوم كل منها بتحديد علة الاستجابة ؛ فإذا كان بالإمكان نفي العلة في حالة الاستجابة السالبة يقوم مرسل الرسالة بإعادة صياغتها وتضمينها للعلة ثم إعادة إرسالها ، وإذا كانت موجبة فإنه إما أن ينتقل منها إلى رسالة جديدة أو يقوم (ب) بإرسال رسالة تعزيز للمعنى المتضمن فيها عبر تقرير الإيجابية التي لاقى بها المستقبل رسالته أو بتقديم حجج إضافية تؤكد المعنى المتضمن في الرسالة الأساسية ، ونشير هنا إلى أن أي عملية حوارية تحوي رسالة أساسية عادة ما تحمل الموضوع الرئيس للحوار وتدور حولها رسائل ثانوية تتراوح بين كونها استجابة تعزيز أو تغيير أو تحوير في مضمون الرسالة الرئيسية .

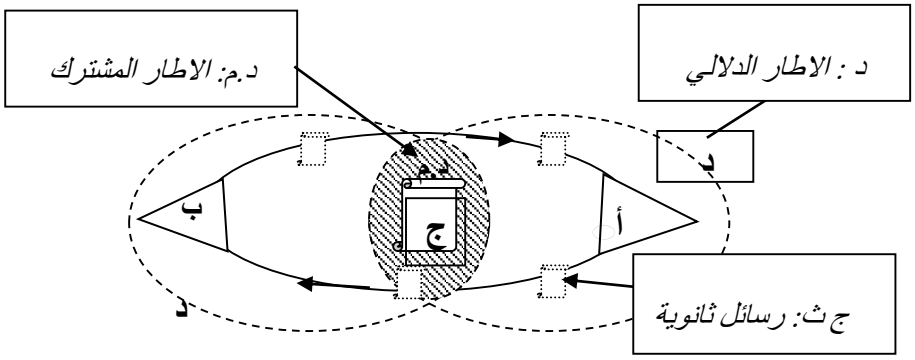

وينبغي أن نبين هنا أن بعض علماء الاتصال قد اهتموا بمفهوم التشويش باعتباره عنصراً لا تخلو منه أي عملية اتصال وقسموه إلى قسمين:

* **تشويش دلالي** : ويحدث عندما يفهم المستقبل الرسالة على غير النحو الذي وضعها به مرسلها ؛ بسبب اختلاف في دلالة بعض الرموز المتضمنة لها بين المرسل والمستقبل.

* **تشويش آلي أو ميكانيكي** : ويحدث بسبب العوامل الخارجية مثل الرياح أو اهتزاز الصوت المنبعث من سماعة التلفون ، ونحو ذلك من التشويشات التي تحدث في بيئة الحوار .

خاتمة :

غاية القول فيما سبق أن القرآن قد أقر الحوار وأسس له كخيار حاكم لتحقيق التعايش بين أبناء الإنسانية ، كما أن الدراسات الاتصالية بمدارسها المختلفة تؤكد أن في الحوار تجسيداً لمعاني الاتصال الإنساني بمستوياته المختلفة ؛ مهما اختلفت الوسائل المستخدمة في تحقيقه أو تعددت ، ولهذا فإن أكثر أنظمة الاتصال فاعلية هو ذلك النظام الذي يكفل أكبر قدر من التفاعل والحوارية ، كما أن أكثر وسائل الاتصال فاعلية هو تلك الوسيلة التي تحقق أكبر قدر من المشاركة والحميمية ، وإن غاية التمكين الحضاري الإسلامي في هذا المجال هو تحقيق التواصل بين أبناء الإنسانية ؛

قال تعالى : (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**) [1] وقال أيضا : (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**) [2]أ ونخلص مما سبق إلى أن التأكيد القرآني المستمر على أهمية الحوار والدعوة له وتأصيل ثقافته يكافئ الشكوى الدائمة من عجز النظام الاتصالي القائم بتقنياته المتطورة عن تحقيق التواصل الإنساني وبالتالي يصبح السعي لإيجاد أمثل النظم لتحقيق التواصل الإنساني واحداً من أهم الواجبات الشهودية على الأمة في هذا العصر.

---

[1] سورة محمد الآية 22

[2] سورة البقرة الآية 143

المراجع :-

- **أرناؤوط :** جريدة "الزمان" العدد 2412 التاريخ 2002/5/30م.

- **الأصفهاني** : المفردات ، في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ط/ دار المعرفة بيروت

-**الباقلاني :** أبو بكر : إعجاز القرآن تحقيق محمد عبد المنعم خفاجه : ط/ 1 دار الجيل بيروت 1991م.

-**البغوي :** معالم التنزيل , ط/ دار المعرفة بيروت ،1987م

- **البيهقي:** أحمد بن الحسين بن علي : سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط/ دار الباز مكة المكرمة 1994م .

-**التوحيدي** : أبو حيان المقابسات ط/ مطبعة الندوبي 1929م

-**الجاحظ :** عمرو بن بحر ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ط / الخانجي القاهرة 1985م.

- **الجرجاني** : عبد القاهر بن عبد الرحمن ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد شاكر ط/ الثالثة مكتبة القاهرة 1992م.

- **ابن حبان :** محمد بن حبان :صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب أرناؤوط ، ط/ 2 مؤسسة الرسالة 1993م .

- **الحنبلي :** عبد الرحمن بن نجم : استخراج الجدل .ط/ مطبعة الفرزدق . الرياض السعودية1980م.

- **الدارقطني** : علي بن عمر : سنن الدارقطني : تحقيق عبد الله هاشم ، ط/ دار المعرفة 1966م .

- **أبو داود:** سليمان بن الأشعث : سنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط/ دار الفكر ، 263/2 .

- الإدريسي : المقرئء أبو زيد : لغة الحوار في القرآن الكريم مجلة الرشاد العدد العاشر / السنة الخامسة / نوفمبر 2000 ص 14-15.

- السيد : محمد صالح محمد: الجدل وآداب المناظرة عند المتكلمين ابن حزم أنموذجا ورقة عمل مقدمة لمؤتمر تقاليد الاختلاف في الثقافة العربية جامعة الكويت في الفترة ما بين 30 مارس إلى 1 أبريل 2002م.

- **الشوكاني** محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير .ط/ دار الفكر بيروت .

-**الصفار :** حسن: التنوع والتعايش ، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية .

- **الضبي :** المفضل: المفضليات تحقيق محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون .

- **العوض :** محمد بابكر: أيام قبل نهاية التاريخ ط/ الخرطوم 2003 .

- الحوار الديني ومستقبل النظام الدولي ورقة عمل للمنتدى الشبابي – هيئة الأعمال الفكرية.

-**أفكار :** رشدي:لمحات منهجية الحوار ، ط/1 مكتبة وهبة القاهرة 1982م .

- **الفيومي** :أحمد بن علي ، المصباح المنير

- **القرطبي** : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ط/3 دار الكتب المصرية ، القاهرة

- **ابن كثير** :تفسير القرآن العظيم ، ط/ دار الفكر بيروت 1981م

- **جارودي :** الإسلام دين المستقبل .

- **ديفلير** : ملفن: نظريات الإعلام ، ترجمة كمال عبد الرؤوف ط /1 ، الدار الدولية للنشر والتوزيع القاهرة 1998م

- **شمو**: علي محمد : أساسيات الاتصال ومهاراته ،منشورات جامعة السودان المفتوحة ط/1 الخرطوم 2005م .

- **شنايدر** : هاينريخ "Heinrech Schneider" : العدل في العلاقات بين الدول والأديان في النظرة الإسلامية والمسيحية ، ط/ المكتبة البولسية جونيا لبنان سنة2002م

- **عبد الرحمن** : عبد المجيد أحمد: التغيرات التقنية ودورها في حوار الحضارات / ورقة عمل مقدمة لمؤتمر حوار الحضارات _جامعة النيلين – مارس 2003

- **قبلان** :الشيخ عبد الأمير "الإسلام مسؤول أيضاً عن فشل الحوار أو نجاحه

- **لويس** : برنارد : ، جذور السخط الإسلامي عن مجلة "اتلانتك منثلي "1990م .

- **مصطفى :** معتصم بابكر : من أساليب الإقناع في القرآن سلسلة كتاب الأمة ، ط/ مطابع الراية الدوحة 2003م.

- **نصر** : حسن محمد: الانترنيت والإعلام الصحافة الإلكترونية ،مكتبة الفلاح ،ط/1 الكويت ،2003

Jery falwel : Listen America . New york Bantam Book,Ink

M.Rosenthal & P.Yudin Dictionary of philosophy Progress publisher Moscow 1967